الشعر المصري في عصر المماليك

بقلم الأستاذ علي الجارم

منزلة الشعر في هذا العصر

لسنا نذكر أن مرتبة الشعر في هذا العصر نزلت عما كانت عليه في العصور الأولى ؛ غير أننا نرى كثيراً من المتأدبين بالغوا في الانصراف عنه ، وأسرفوا في وصفه بالانحطاط والإسفاف ؛ وفي اعتقادنا أن ذلك يرجع إلى أسباب ، منها :

أن نهضتنا الحديثة أسست على الشعر الجاهلي والأموي والعباسي ، وكان صاحب اليد في هذا « محمود سامي البارودي » ؛ فإنه ظهر فرأى شعراء عصره يحاكون سخفاء الشعراء قبلهم ، كالشهاب والدرويش ، فأبت نفسه أن ينزل إلى هذا الحضيض ووثب إلى الشعر في ريعانه الأول حيث الجمال ، والروعة ، والبسطة في الخيال ؛ فقرأ كثيراً في الشعر الجاهلي والعباسي ؛ ثم أبرز للناس آيات فبهرتهم ، وما زالوا يتساءلون حتى عرفوا مصدر نبوغه ، فانصرفوا إلى شعر الأوائل وفتنوا به ؛ وإذا أسمعتهم شيئاً لصفي الدين أو ابن نباتة المصري ، هزوا أكتافهم استخفافاً ، وخاضوا في حديث غيره .

وسبب آخر : هو أن مستشرقي أوربا لم يهتموا بدراسة شعر هذا العصر ، فلم يترجموا منه إلا قليلا ، ولم يستطيعوا فهم ما فيه من روعة بديعية ؛ لأن طرائف البديع قلّ أن يستطاع الإبقاء عليها عند الترجمة .

أسباب ازدهار الشعر

إن الشعر إنما يزدهر في الأمم لسببين :

الأول مادي : وهو أن يكون الشعر وسيلة للثروة والغنى كما كان الأمر في العصر العباسي أيام الإغداق والصلات وملء الأفواه بالدر والجوهر .

الثاني معنوي : وهو أن يتملك الفن صاحبه حتى يصبح كالغريزة الجبارة ، فيدفع صاحبه إلى العمل دفعاً ؛ ويصبح والفن هواؤه الذي يستنشق ، وصديقه الذي يأنس إليه ، وسعادته التي تملأ جوانب نفسه ، وذخيرته التي لا يشرى بها كنوز الأرض ودفائنها ؛ هو يعمل لأنه يحب الفن ويعشقه ، ويجد فيه حياة ودنيا أخرى غير هذه الدنيا الحافلة بالهموم والأوجال ؛ وهذا

الصنف لا يأبه لجفوة الناس، ولا ينتظر تشجيعهم، ولا يفرح بمديحهم، ولا يأسى على انصرافهم عنه، ولا يطمع فى ثواب، ولا يرجو أجراً، بل إن الفنان يعتقد أن بيع الفن إهانة للفن، وحط من مرتبته العليا، التى يجب أن تكون روحانية خالصة لا تدنس بالأطماع، ولا تمتد عينها إلى متاع الحياة الزائل. لهذا كان الشعر فى نشأته الجاهلية الأولى يأنف أن يباع فى الأسواق بيع السلع، وكان الجاهليون يرون من العار أن يجعل الشعر وسيلة للكسب، ولعوا ذلك على النابغة والأعشى، وزهير الذى كان يفر فراراً من مواهب «هرم بن سنان». وهذا السبب الثانى هو الغالب فى حال الشعر أيام المماليك، كما سنبين ذلك جلياً، ولا شك فى أن الشعر الذى يقال للفن نفسه، هو الشعر الذى يمتزج بالنفس، ويتملك الوجدان: انظر قول ابن الوردى:

حمى الله شعرى عن ذلة فلا يستكين ولا يخضع
وإن اكتساب الغنى بالمديـ ـح مهين له مؤلم موجع

* * *

لم يكن هذا العهد عهد تكسب بالشعر، بالمعنى الذى نفهم فى العصر الأموى والعباسى، ولم يكن الشعب المصرى يفهم الشعر وتختلبه روائعه، ولم يكن سلاطين المماليك يفهمون العربية الفصيحة، فضلا عن إدراك ما فى الشعر من خيال دقيق، وسحر لا يبهر إلا البصيرة العربية الصحيحة أو المتعلمة، لأنه لم يمتز بشىء من الفهم فى هذا العصر كله إلا قليل منهم، وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد وقايتباى والغورى: ولم يكن لهؤلاء السلاطين شعراء مختصون بهم كما كنا نرى فى العصر الأموى والعباسى، اللهم إلا فى قطعة صغيرة تابعة لإمبراطورية مصر، وهى حماة التى يقول ابن نباتة فى مدح ملكها:

زوجتنا حماة نعمى يديه فغدا كلنا يحب حماته

وإنما كان الشعراء يمدحون الملوك عندما يعن سبب: إظهاراً لاقتنائهم، أو رهبة من بطشهم، أو خوفاً على مناصبهم؛ ولم تكن تعرف عادة إثابة الشاعر وصلته، حتى إننا نسمع الشكوى مؤلمة ممن حاولوا الاستجداء بالقريض، لكساد سوق الأدب، وما أصبحوا فيه من بلاء وفاقة.

ومن هؤلاء أبو الحسين الجزار الذى يقول:

كيف لا أمدح الجزارة ماعشـ ـت طويلاً وأهجر الآدابا
وبها كانت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا؟

وابن نباتة وهو حامل لواء الشعر فى هذا العصر يقول:

لقد أصبحت ذا عمر عجيب أقضى فيه بالأنكاد وقتى
من الأولاد خمس حول أم فواحرباه من خمس وست!

ويقول :

فكفى فى وضوح حالى أنى ... فى زمانى هذا من الأدباء
ضاع فيه لفظى الجهير وفضلى ... ضيعة السيف فى يد شلاء

ويقول :

أسفى على الشعراء إنهم على ... حال تثير شماتة الأعداء
خاضوا بحور الشعر إلا أنها ... مما تريق وجوههم من ماء

* * *

ولم يكن فى هذا العهد من ضروب العبث والمجون ما تقرأ أخباره فى العصر العباسى منثوراً فى كتاب الأغانى وغيره ، لأن السلاطين كان أكثرهم رجال جد وتحرج ، وكانوا أحلاس حرب وجهاد ، فقد شك قايتباى فى الحديد - كما يقول ابن إياس - علاء الدين ابن رحاب المغنى ، وعزم على نفيه لأنه فتن الناس بصوته ! وضرب الأمير يشبك بن حيدر ، خديجة المغنية خمسين عصاً ، فماتت لأنها أفسدت عقول الناس !

وكان للفقهاء والمحتسبين حمية صادقة فى المحافظة على الدين والتجافى عن العبث ، كما كان لهم قسط وفير من النفوذ والقوة والمكانة عند السلاطين ، والمقدرة على الضرب على يد كل عابث . فلم يجد الشعر - إلا أقله - فى هذا العصر مجالا إلى اللهو .

من كل ذلك يظهر - إذا طرحنا جانباً بعض الشعر الذى كان يقال فى المديح رغبة أو رهبة - أن الشعر فى جملته فى هذا العصر كان يقال لأنه شعر ، ولأن الشعر جمال ، ولأنه نفحة ربانية تجيش فى الصدر حتى تجد لها منفذاً .

وكانت بين شعراء مصر والشام منافسة شديدة ، ومسابقة عنيفة فى الإجادة ، فكان كل فريق يتلقف ما قاله الآخر على بعد المسافة ، ويتناوله بالنقد أو المعارضة أو السرقة .

حكى ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ، أن جمال الدين بن نباتة لم يستطع صبراً حينما رأى أنه كلما اخترع معنى لم يسبق إليه ، أخذه صلاح الدين الصفدى ، فصنف كتاباً جمع فيه ما قاله هو ، وما قاله الصفدى مسروقاً منه ، وسمى الكتاب « خبز الشعير » لأنه مأكول مذموم ، واستهل خطبة الكتاب بالآية الشريفة « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً »

من ذلك مثلا قول ابن نباتة :

بروحى عاطر الأنفاس ألمى ... ملىء الحسن حالى الوجنتين
له خالان فى دينار خد ... تباع له القلوب بحبتين

الذى أخذه الصفدى وقال :

بروحى خده المحمر أضحت ... عليه شامة شرط المحبه

كأن الحسن يعشقه قديماً فنقطه بدينار وحبه

فلما سمع ابن نباتة هذين البيتين قال: « لا إله إلا الله ، سرق الصفدى من الجبتين حبة »، ولعل ابن نباتة تهدأ نفسه إذا ذكر أنه كان يغير على لآلىء علاء الدين الوداعى ، وأن السرقات الشعرية قصاص .

***

وكان للشعراء محاورات ومداعبات ، لم تبلغ ما كانت عليه أيام دعبل وأبى نواس وصريع الغوانى ، ولكنها كانت — من غير شك — ميداناً للإجادة ومصدراً للامتحان .

وكان الشعراء المجيدون من طائفة الكتاب المستخدمين وأصحاب الصناعات ، كالجزار ، والخياط ، والحامى ، والدهان ، والكحال ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى هذا العصر بالشعر وحده .

وربما شوه جمال هذا العصر ، ودفع الناس إلى سوء الظن به ، تصدى كثير من الأدعياء لقول الشعر ، ودس أنفسهم فى طائفة الشعراء دساً ، وقد ساعدهؤلاء — لسوء الحظ — أن وجدوا من المؤلفين من ينقل إلى هذا الجيل الهادىء المسالم ، تلك الآثار السقيمة التى يبرأ منها الأدب وتذعر العربية ، فإذا كان بعض الأدباء .. كما حكى ابن خلدون فى مقدمته — حينما سمع قول بعضهم:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى

قال « إن هذا كلام فقيه يبحث فى الفروق بين الحقائق » مع أن فى البيت شعراً وتصويراً ، فماذا يصنع هذا الأديب لو سمع قول عبد الباسط الحنفى ، حينما تنبأ الفلكيون بفتنة عند قران زحل بالمريخ :

ليس القران بفاعل كلا ولا بمؤثر
إن المؤثر من له خلق القرآن ففكر
فالفعل عنه صادر كم يا منجم تفترى؟

هؤلاء المتشاعرون هم الذين أساءوا إلى سمعة الشعر فى هذا العصر ، ونفروا منه طلاب الأدب الناشئين ؛ وكثيراً ما نعرف أناساً يستطيعون أن يقولوا كلاماً موزوناً ، ولكنهم لا يتصدون لقول الشعر ، لأنهم يفهمون أن الشعر شىء والكلام الموزون شىء آخر ، ولأنهم لا يريدون أن يكونوا موضعاً للسخرية والتنادر .

فإذا طرحنا هؤلاء الأدعياء وجدنا الباقى كثيراً ، ووجدنا فيه حلاوة الذوق المصرى .

وقد يتاح لنا أن نبحث فى فنون الشعر فى هذا العصر ، وأن ننقل طائفة صالحة من بدائعه ؟

على الجارم